المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الرابع عشر بعد المئة

مارس سنة ١٩٤٩ | ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٦٨

طوفان التقدم

صراع بين اللاهوت والعلم

إزاء علم الجيولوجيا

— ١ —

عقلية الجمود ونشوء التعليلات اللاهوتية

بدايات علم الجيولوجيا عند الاغارقة والرومان — موقف الكنيسة ازاء العلم — النظريات الجيولوجية عند أوائل اللاهوتيين — موقف رجال المدارس — ابتكارات المدارس العربية — نظريات أوائل رجال البروتستانت — تأثير احياء العلوم .

نقع عند فلاسفة الاغريق ، وفي زمان مبكّر ، على جراثيم من العلم الجيولوجي والحقائق الجيولوجية ، وقد نقع على ما هو أجدى من هذا وأتم ، وتقعد بذلك جوًّا قد تنمو فيه هذه الجراثيم وتربو . انتقلت هذه الجراثيم إلى الفكر الروماني ، وانتعش جو التسمح واستمر أثره . لم يقم من عامل يصد الفكر عن التأمل في طبقات الارض أو بقايا الأحياء التي توجد في تلك الطبقات . وفي ظل الامبراطورية الرومانية بدأ عهد مثمر من المشاهدة العلمية .

وعند ما بسطت النصرانية سلطانها على العالم واحتكمت فيه ، استظل الناس بانقلاب جديد . كان موقف الكنيسة عند البداية إزاء علم الجيولوجيا وما عت اليه من العلوم ، موقف التهاون ، بل الاحتقار والازدراء . والسبب في هذا أن المعتقد السائد كان منطويا على أن الارض « عالم منبوذ » وانه عما قريب سوف يتدثر ويتحطم . فلماذا نكب على درس حالاته ؟ ولأي سبب نفكر فيه ؟ ذلك بأن الازدراء التي وجهه لاكتانتيوس والقديس أوغسطين إلى علم الفلك ، قد امتد إلى غيره من العلوم .

غير أن جراثيم المعرفة والفكرة العلمية التي فرخت في الدنيا القديمة ، لم يتسن للبلاغة ولا للمنطق أن يبددها ويذهبا بريحها . فانك ولاشك واقع على قليل من المشاهدات العلمية ومعترف حتماً بوجودها ، بالرغم من أن كل تفكير جدي فيها قد عصف به اللاهوت ، حتى أن القديس « بيروم » قد مضى مقتنعاً بأن تلك الصدوع والاعوجاجات التي نراها في قشرة الارض، إنما ترجع إلى الغضب الإلهي من أثر المعصية، كما قال « ترتليان » إن المفريات إنما هي أثر من آثار الطوفان .

* * *

ومن أجل أن تظل هذه المشاهدات وتلك الفكرات في حيز الارثوذكسية، بدأ القديس أوغسطين في بداية القرن الخامس يبذل أقصى الجهد في سبيل أن ينشيء من هذه الجراثيم ضرباً من العلم ، قسي الطابع سليم المأخذ . وبهذه الميول وضع تعليقه الكبير على طريقة الخلق بحسب ما رويت في سفر التكوين ، كما استعان على ذلك بكتابات أخرى . ولم يلبث أن يأخذ قــه هذا العمل

حتى انصرف بكليته اليه انصرافاً لم يباره فيه أي أب من آباء الكنيسة من قبل. ولكن كفاياته العليا في البحث وعمق فكرته في التأمل ، عامة اذ لم يتجه نحو المشاهدة الواقعية أو التفكير وفقاً لهذه المشاهدة . فان حجر الزاوية في أسلوبه التفكيري قد انحصر في عبارته المشهورة : « لا يمكن أن يقبل من شيء لا يتفق وولاية الاناجيل ، لأن هذه الولاية هي ولاشك أعظم من كل كفايات العقل الانساني » . وكذا توجه بفكره جميعاً إلى درس المتون المقدسة بحرفيتها ، وحاول أن يجعل هذه المتون مفسرة لظاهرات الطبيعة ، بأساليب لاهوتية صرفة .

وننقل هنا شيئاً من المسائل التي أثارها وناقش فيها : " ما هو السبب في أن النجوم خلقت في اليوم الرابع ؟ " — " أخلقت الوحوش المفترسة والحيوانات السامة قبل هبوط آدم أم بعده ؟ " — " إذا كانت قد خلقت قبل هبوطه ، فكيف نوفق بين هذا وبين خيرية الله ؟ وإذا كانت قد خلقت بعد هبوطه فكيف نوفق بين خلقها وبين نص كلمة الله ؟ — لماذا حشرت الوحوش والطيور أمام آدم لتسمى ، ولم تحشر الأسماك والحيوانات البحرية ؟ — لماذا لم يقل الخالق للنباتات كوني مثمرة وتكاثري ، كما قال للحيوانات ؟

***

نسجت إجابات عشوائية لهذه الأسئلة ومثيلاتها ، فكانت الابتكارات التي اهتدى اليها أعظم الآباء اللاتين تفسيراً للمعرفة الدنيوية ، بعد دراسة كاملة للمتون الانجيلية ، وتطبيق عميق شامل للفكرة اللاهوتية . أما النتائج التي ترتبت على هذه الابتكارات فكانت ذات بال . فان أوغسطين في هذا المجال العلمي ، وفي غيره ، قد وجه تيار الفكر الرئيسي في غربي أوربا ، سواء أكان في الكثلكة أم في البروتستانتية ، قرابة ثلاثة عشر قرناً من الزمان .

في العصور التي تلت عصر أوغسطين ، اتبع العديد الأوفر من دارسي الفكر خطواته من غير مناقشة أو بحث . ولا يفوتنا أن رجلاً قوي الشكيمة مثل البابا غريغوري الأكبر قد عني لسلطانه ، زعماء مفكرين وقادة علماء مثل سان إزيدور في القرن السابع ، والمحترم « بيده » Bede في القرن الثامن ، قد أسسا علمهما على مقدمات أوغسطين ، ولم يستطيعا أن يخرجا في شيء عن نتائجهما ، على الأسلوب الذي وضع أسسه وأقام قواعده .

لقد اتمّ « إزيدور » في كتابه « الاشتقاقات » — Eytmologies عما حاول أوغسطين من قبل إذ شاء أن يربط بين الخلق وبين عبارات سفر التكوين، برباط مقنع . فلما نظر في الحفريات ، وهي بقايا المخلوقات البائدة المندفنة في باطن الارض، ظن كما ظن « ترتيليان » من قبل ، انها من مخلفات طوفان نوح . وفي القرن التالي مضى „ بيده „ يرتّب تلك المأثورات التقليدية .

* * *

إن أقوم تفسير يساير بعض الشيء المعنى الجيولوجي، قد صدر عن أحد أتباع القديس أوغسطين ، وهو راهب إرلاندي من الدارسين ، أراد أن يقلل من الصعوبة التي تعترض الفكر اللاهوتي من ناحية استيطان الاحياء وتوزعها على سطح الأرض ، وبخاصة حقيقة أن الحيوانات التي هي في إرلاندا هي بذاتها التي في انجلترا ، فقال إن الأراضي التي هي منفصلة الآن، كانت متصلة في سالف الأزمان ولكن العوامل اللاهوتية ، مع الأسف ، قد أجبرته على أن يجعل انفصالها تالياً لحدوث الطوفان . من حسن حظه انه في عهده لم تكن قد عرفت حقائق تلك التي تدل على أن „ الكنغر „ — Kangaroo لا يوجد إلاّ في جزيرة منعزلة في

المحيط المادي ، وأنه بالتبعية لنظريته ، ينبغي أن يكون قد هاجر إلى موطنه الحالي ، مع كل ولائمه ، منتحياً طريقاً خفياً لم يستطع أحد من الوحوش زملائه في سفينة نوح ، أن يشقه إلى حيث أقام .

* * *

هذه هي خطوط الفكر العامة التي اتبعها القديس أوغسطين في علم الجيولوجيا وما يتصل به من العلوم كعلم الحيوان ، وتبعه فيها كتلة لاهوتيي العصور الوسطى ، إذا ما توجه انتباههم إلى درس مثل هذه الأشياء .

* * *

الخطوة الثانية التي خطاها علم الجيولوجيا على يد الكنيسة ، تمت من طريق اللاهوت المدرسي . ولكن البحث الصحيح فيها قد خضع لتنميق العبارات . وفي خارج الكنيسة ، كما في داخلها ، استحدثت ابتكارات فذة طريفة . ففي القرن الحادي عشر عزى « ابن سينا » تكون الحفريات إلى قوة فيها قدرة على تخليق الصخور . وفي القرن الثالث عشر ، عزاها « ألبرت الكبير » إلى « خاصية تصويرية » . وفي القرون التالية جسر بعض الفلاسفة على القول أنها نشأت من بزور ، كما اتخذت نظرية أرسطوطاليس في التولد الذاتي سبيلاً إلى القول بأن هذه الحفريات المتحجرة لها قدرة التوالد كالنبات والحيوان .

رغم هذا نجد أن الآراء التي غرسها الفكر الاغريقي والفكر الروماني قد عادت إلى الحياة ، مرة هنا ، وأخرى هناك . فإن رجال المدارس العربية لم يلتزموا حرفية القرآن ، كما التزم حرفية الأناجيل معاصروهم من رجال المدارس النصرانية . وإلى فيلسوفهم الكبير « ابن سينا » يرجع الفخر الأول في تصوير النظرية

الجيولوجية الحديثة تصويراً واقعيًّا ، نظرية التغايرات التي تصيب قشرة الأرض [1] .

* * *

كان الأثر الذي أحدثه الاصلاح الديني أول الامر ، غير مُوات للتقدم العلمي . فانه لم يكن من شيء فيه روح المعاندة للنظرية العلمية في نشوء الكون ، من تلك الفكرات التي اعتنقها قادة البروتستانتية . فإن استمساك لوثر وميلانكتون كل الاستمساك بحرفية الاناجيل ، وبخاصة رفضهم فكرة ان السيارات تدور من حول الارض ، قد امتدَّ إلى كل المقررات العلمية الاخرى التي تخالف النصوص المقدسة . وهنالك كثير من الحق في القول بأن العقبات التي أقيمت في سبيل العلم كانت عند أوائل البروتستانت ألزم وألصق بالتفسيرات المستمدة من الكتب المقدسة ، منها عند رجال الكنيسة القديمة . أما الروح الشامل بين رجال الاصلاح الديني ، فلا يظهرك عليه كما يظهرك تصريح بطرس مارتر ، أو بطرس الشهيد ، إذ قضى بأنه إذا انتشرت فكرة خاطئة في الخلق تخالف قصة سفر التكوين — « فإن كل تبشيرات المسيح تنتهي إلى لا شيء ، ويقضى بذلك على حياة الدين النصراني » .

في العصور التي عقَّبت على حركة الاصلاح الديني ، سارت أحوال الفكر من سيء إلى أسوأ . فانه في ظل لوثر وصاحبه ميلانكتون، عاش تدرُّج قليل من حرية التأمل ، ولكن في ظل أخلافهم قضيَ على هذه الحرية قضاء تامًّا . فإن الشك في أي تفسير من التفسيرات التي قال بها لوثر ، قد اعتبر معصية تعادل

(١) انظر كتابات سير شارلز ليل ومسيو دارشياك — Sir Charles Lyell and Mr. D'Archiac.

الشك في تفسير الكتب المقدسة ذاتها . والمثل الأكبر على هذا ، ذلك العراك المديد الذي قام به القائلون بأن الطيور خلقت من الماء خاصة ، والقائلون بأنها خلقت من الماء والطين معاً . ففي مدينة « لوبك » وهي المركز القديم « للعصبة الهنسية » وفي قرابة ابتداء القرن السابع عشر ، نشر « بفيفر » المشرف العام أو الاسقف في تلك النواحي ، كتابه المسمى « وحدة الحكمة الموسوية » — Pansophia Mosaica ظاناً انه بذلك الكتاب سوف يهزم العلم إلى الأبد . وفي منظومة من الجملات الطويلة ، مضى يقول وباقتناع كامل إن النص الحرفي لسفر التكوين هو طريق الأمان ، وانه يتضمن كل الحكمة وكل المعرفة ، بشرية وإلاهية . وإذا كان الأمر كذلك فمن ذا الذي يعنى بانفاق وقته في درس الاشياء المادية ، ويفكر في تركيب العالم ؟ وفوق هذا كله ، وبعد تقرير ذلك الرأي من حاكم له سلطانه في الدنيا اللوثرية ، لم يجرؤ أحد على أن يتكلم في « أيام » الخلق التي ذكرت في سفر التكوين على أنها « أحقاب متطاولة من الزمان » ، أو في « القبة السماوية » على أنها ليست قبة سماء جامدة تظلل الكون ، أو في « المياه التي هي فوق القبة السماوية » على انها ليست محوية في حوض عظيم يرتكز على هذه القبة ، أو في « نوافذ السماء » على أنها ليست متصنتات للكلام والتحدث منها .

* * *

تجلت هذه الروح ذاتها في انجلترا وظلت متسلطة إلى زمان سير « ماتيو هيل » . فقد نجد في كتابه المسمى « بأصل النوع الانساني » المنشور في سنة ١٦٨٥ نظرية حرفية نشأت بمقتضى ما جاء في المتون المقدسة ، ظهر فيها العجز التام عن تكوين فكرة في أصل الأرض وتكونها ، مستمدة من أي مصدر آخر .

وبينما كان الاصلاحيون من لوثريين وكلفنيين وانجليكانيين يتشبثون

بالتفسيرات الحرفية للكتب المقدسة ، مشيحين بوجوههم عن البحث العلمي منصرفين عنه ، نشأ في بيئة من معاصريهم وفي بدء حركة « الاحياء العلمي » فكرات متمردة في تلك الناحية من العلم ، في بداية القرن السادس عشر ، كون « ليوناردو دافنشي » ، وهو من أفذاذ العلماء كما هو من أفذاذ الفنانين ، الفكرة الحقة في أصل البقايا الحفرية ، ومضى معاصره « فراكستوورو » ينشئ الفكرة ويربيها بمقتضى الأساليب التي رسمها الفكر الحديث . ذلك في حين أن غيرهما في أنحاء مختلفة من أوربا ، قالوا بفكرات قد امتزجت بكثير من الآراء الفجة ، فإنها أمدت العلم بحقيقة تلو أخرى . وعند أواخر القرن السادس عشر ، استوعب « برنارد باليسي » في فرنسا هذه الفكرة وتماها بنبوغه الذي تجلى في قدرته على الخلق الفني ، فاستطاع أن يرفع صوتها ويسمعه الكثيرين . ومع هذا فقد ظل كثير من اللاهوتيين والفلاسفة ، بل وبعض رجال العلم ذوي الصيت ، يقولون ، متأثرين بسلطان العبارات المدرسية ، بأن الحفريات هي من آثار « مادة دهنية خثرتها الحرارة » أو هي من أثر « عصارة صوانية » أو نتيجة « حركات ثورية أحدثتها تنفسات أرضية » . بل عم هنالك اعتقاد في أن البقايا الحفرية على وجه عام ، يمكن أن تكون في جملتها من « ألهيات الطبيعة » ، وعقب المؤمنون على ذلك بأن هذه « الألهيات » قد تكون نتيجة غرض غير مستبان من أغراض الله : القادر على كل شيء !

وظل هذا على أنه الأسلوب التفسيري للعقيدة الارثوذكسية في الكنيسة ، من بروتستانت وكاثوليك ، خلال عدة قرون متعاقبة .

(البقية في العدد القادم) اسماعيل مظهر